

# سعيًا وراء المدهش في أدب الطبيعة

محمد سعيد الجنيدي

في ردهة طويلة تستند الى اعمدة جانبية قليلة ، استعير لها مفهوم الكهوف ، بحيث بدت مبعوجة الجوانب كصفيحة صدئة من التلك ، يبدو برميل من الماء يتساقط على سطحه نور ضعيف من طرف الردهة النائي . يبدو الماء قدراً زيتياً ، ذلك لأن الظلال المنعكسة من ذلك العمود الضخم ، التي ظهرت بصورة ما من خلال شبه الظلام الذي يعطي القاعة عمقاً غير متوقع ، توهم بأن الماء آسن حتى درجة الاحساس بطعم خاص . وعلى وجه الماء الراكد ركوداً غير طبيعي - وهذا هو المقصود من جميع الحركات الاخرى - تطفو قطعة من الخشب العادي . ويدنو منك البرميل شيئاً فشيئاً ، بحركة بطيئة تناسب من خلال موسيقى ناعمة ، وفجأة ، وعندما تحس بانك ستلمس قطعة الخشب ، وتتضح الوان الماء التي تختلط بالاصفرار ، يترجرج الماء على غير انتظار ، من حركة تنبع من قعر البرميل آخذة شكل فقاقيع للوهلة الاولى ، ثم موجات بطيئة ، بحيث تتحرك قطعة الخشب ، كأنما تحس بأنها ترتفع مع مدّ خاص بالماء . وتتفجر موسيقى جاز بصورة غير متوقعة . في هذه اللحظة ، تعطيك الحركات والموسيقى معنى اللا متوقع . تحس كأن شيئاً ما سيظهر من داخل البرميل . هذا الشيء يميل بك الى الاعتقاد بأنه كائن ما يطفو على سطح الماء لكي يأخذ مكان قطعة

الخشب : كأنها رمز للخلاص ، وكأن الماء رمز للبحر استطاعت قوة ما ان تحصره داخل مفهوم شمولي محسوس للانسان . ولكن ، فجأة ، يأخذك شلال من الصور المتتابعة الى موقف آخر ، كأن يلصق عينيك ويسحرهما بوجه مجدور تعطيه الظلال رمز فاجعة ، حتى لتحس بأن عمق العذاب الطافي على وجهه سيدفعك الى الغثيان .

انها تلك الحركة ، من خلال الصمت ، التي تقودك الى اللامتوقع . هي احدى حيل انطونيوبي السينائية التي يلجأ اليها للتعبير عن البناء الداخلي لنفس الانسان المعاصر .

هنا نجد انفسنا حيال وضع ما ، يشبه التغلغل في عالم خاص خلال فكرة ما ، واستخلاص لقيمة اخلاقية من تجارب الذاكرة . وهنا يكمن الضعف في محاولة جعل حركات الجسم مطابقة لحركة النفس والتفكير . الا انه من الواضح ان الجسم البشري لا يمكن ان يعبر عن الحالات المعقدة للنفس والعقل الا بحالات غامضة غير واضحة . ومن هنا كانت هذه الاجواء « الكهفية » ، والتوقف الفجائي ، والظلال المنعكسة على وجه بشري يبرز من بين جدرانين . او كأن نرى ظلالاً غامضة ترحف ببطء وتترك شتى الايماءات — بانسان ، بحيوان ، بجدار يتحرك لغاية ما .

البحث عن اللامتوقع ، عن المدهش ، هو الانعطاف الجديد نحو الحياة لدى انسان اوربا الجديد . ويعتبر هذا المنطلق الجديد الرد الايجابي على فلسفة الضياع ولا شيئية الحياة ووضعها في نهاياتها المخزنة . كأنه لا يجدي البحث عن اية قيمة ما دامت الحياة نفسها بلا معنى ، وما زال الانسان فاقداً للمبرر المعقول لوجوده .

في الصورة الاولى المنتزعة من احد افلام انطونيوبي ، نلاحظ المحاولة ، لدى مخرجي الافلام التي تعتبر طليعية ، الى الاستعانة بالرمز : فتأخذ اسلوب التغلغل الى العمق مارة بتجربة الانسان . هذه الصور مع الرمز هي ما يمكن ان يسمى باحدى حالات الحضارة المعاصرة التي تركت الخطوط الاقفية لتأخذ خطوط العمق ، وقد يصل هذا التغلغل الى درجة التزوف . والرمز يسير جنباً الى جنب مع الاسطورة ، وذلك عندما وجد الانسان الحديث في الرمز بعض منظويات التحليل النفسي التي لا تنأى كثيراً عن تعقيدات النفس الانسانية المعاصرة ، كما حاول احد المخرجين اليونان احداث تحول في المفهوم السيكلوجي في فيلم « الكترا » . وكذلك نجد ان الانسان الحديث قد تخلى عن البحث عن المعتقدات التي تنتهي عند حافة « الجدار » .

لقد خالف العالم الحديث كيركغارد يبحث عن الايمان عبثاً من منطلق لا شيئية الحياة ،

وذلك في مرحلة ما من معاناة تجربة الفكر الحديث . وانبثق رد جديد على سؤال جديد طرحته الواقعية الجديدة في الفكر واسلوب العمل ، اذ ان الواقعية الحديثة تؤكد على ان الحياة هي ، بكل بساطة ، اكثر من لحظة نعيشها - حتى ولو افترض انها لحظة ما تتكرر ، وان الانسان يعيش لحظة ما فقط ، على اعتبار انه لا يملك من الزمن الا هذه اللحظة التي تنتهي في الغموض ، على اعتبار ان الانسان لا يملك اللحظة في المستقبل . من هنا كان لهذه اللحظة عمقها ، هذا العمق الذي يختصر تاريخ الانسان كله في نفس واحدة . الحياة اذاً ، في الرد الجديد الواقعي ، تنطوي بصورة مستمرة على العطاء ، تنطوي على المدهش . وما زالت كذلك فلينطلق الانسان للبحث عن المدهش ، ريادة العالم .

والجواب الحاضر لدى انسان اوربا الجديد هو انه يريد ان يرى العالم . لماذا ؟ بحثاً عن اللا متوقع ، عن المدهش . في كل دقيقة تختصر ابعاد العالم ، والمجتمعات تتداخل بصورة لم يسبق لها مثيل في التاريخ ؛ العالم كله يختصر نفسه ويتضاءل ، معطياً الانسان الحديث فرصة الكشف عن المدهش .

في هذا السياق اخذ العالم مفهومه لدى الكاتب الامريكى وليم بوروز ، الذي كان يعيش لوقت قريب في طنجه ويعيش الآن في باريس . وقد ركز هذا المفهوم في روايته الذاتية « الغداء العاري » واعطاه عمقاً اكثر في روايته الاخرى « الآلة الناعمة » .

وقد اخذ الشيء المدهش لدى بوروز اتجاهاً اكثر حدة في مواجهة قسيم ومواضع البيئات الانسانية . فقد نشر في روايته « الغداء العاري » صوراً للشذوذ الجنسي لم يسبق لها مثيل ، مما جعل روايته تتخذ طابعاً غير اخلاقي ، ولم يتيسر لها الصدور في العالم الانكوسكسوني الذي كتبت بلغته الا هذا العام ، بينما نشرت في باريس قبل عدة اعوام ، وكانت كتابه الاول . ولما كانت رواية ذاتية اصبحت لها تلك القيمة كتجربة وفن وتحليل .

يركز بوروز اهتمامه في المقام الاول على اختصار العالم . فشخصياته هامشية ، ريادةية ؛ هم غرباء في كل مكان ، ولكنهم لا يحسون بأنهم غرباء . يبحثون دائماً عن المدهش ، وقد يجدون هذا المدهش . هناك في الواقع حس مشارك في واقعية العالم الحديث . انت اليوم في باريس ، وقد تكون غداً او بعد ساعات في هونغ كونغ ، ولكنك قد تكون في لندن بعد ساعة . حتى لتحس وانت تنتقل عبر العالم من مدينة ضخمة كلندن الى مثلها

كنيوبيورك، بانك لم تبدل فعلا سوى حي من الاحياء—هذا اذا ما تشابهت الوان الحضارة بين بلد وآخر . وهذا المفهوم واقعي جداً ، اذ انك قد تحتاج الى اكثر من ثلاث ساعات للقاء صديق لك في حي آخر من احياء لندن ، بينما لا تحتاج الى مثل هذا الزمن عندما تنتقل من لندن الى باريس او من باريس الى بروكسل ، او حتى من لندن الى روما .

الانسان اذاً ، في تجربته عبر العالم ، يعيش تجربتين : تجربة الصور الممزقة التي تنعكس في نفسه على شكل من التتابع الضبابي ، تنسي فيه الصورة الصورة ؛ وتجربة الغربة ، التي تكاد تتلاشى في بعض الحالات ، او تنعدم تماماً في كون البيئة النفسية والانسانية متيسرة في حالات قد تكون كثيرة .

ان وليم بوروز في الواقع لم يستطع حتى الآن ان يكشف عن ذلك العمق في سرطانيات العالم الحديث : ذلك انه اختار حالة من حالات الشذوذ البشري كمنطلق لتجربة انسانية غير مقبولة في واقع الانسان . ومن هنا كانت صورته شبيهة بتلك الاغنية التي تقول :

« منذ زمن وانا ارصد هذه اللحظة ،

قلت منذ زمن . لا ، انه العمر .

مثل عنكبوت يرصد ذبابة .

ولكن ، قد يفنى العمر ،

وحتى العالم يفنى ،

واللحظة تذوب في العالم .

ولكن اذا كانت هذه اللحظة النادرة قد ذابت في العالم ،

فاني سأنظم اغنية في العالم كله ،

اغنية حب وكفى .»

واذا كان وليم بوروز قد ترك شخصياته لتعيش هامشية في مدى الانحراف النفسي والشذوذ الجسدي ، وبقيت عاجزة في بعض الحالات عن فهم التحولات الخطيرة التي تجري في العالم ، كواقع نفسي محسوس ، فان الكاتب الايرلندي صموئيل بيكيت قد اعطى مفهوم العمق للنفس الانسانية في رواياته ومسرحياته . وذلك بعد ان تخلى عن واقع العالم كله ، كحقيقة مختصرة في نفس الانسان . ذلك ان يعتقد ان حقيقة اختصار العالم لم تصبح واقعاً ثابتاً بعد ، ولا تزال تعيش على السطح ؛ انها تلك الخشبة الطافية على برميل الماء : حقيقتها واضحة ، ولكنها لم تتحرك بعد ، ولم تتذبذب ، لكي تعطي

لحظة اللامتوقع .

لهذا نجد اعمال بيكيت تنمى لاعمال كافكا وهنري جيمس ودستوفسكي وجيمس جويس . الا انه لم يحقق بعد ، بصورة من الكمال ، مستويات هؤلاء . انه يعتقد بواقعية اكتفاء الانسان ، في موقف ما ، وقناعته في لحظة معينة ، حتى لو كان على صعيد الشك .

« اني اعرف ان رغباتك لا تحصى .

ربما تكون ابعده مما يتصوره الآخر بنظرة اعتمى حسداً وحقداً .

ولكن الا يمكن ان تحدث تلك اللحظة الفريدة

التي تقول عندها : ان هذه اللحظة تكفي ؟

دعني احدد هذه اللحظة : انها اللحظة التي تحب فيها حياً نادراً ، او تقتل عن شهوة ،

او تنتحر . ولكن كل هذا مجرد اتهام للانسان ، وافتقار لقيم التعايش في بيئة واحدة ،

او نفس واحدة . ومن هنا ، من مفهوم بيكيت ، يقفز السؤال التالي : هل هناك ازمة

تعايش بين الانسان الحديث ومجتمعه ، وبين نفس الانسان وجسده ؟

ولكن الاسئلة التي تطرح على هذا المستوى تستلزم تحليلاً لهذه النفس . فما هي هذه

النفس ؟ هل هي اكثر من شريط حساس يسجل كل توترات البيئة في اوسع مفاهيمها

واشد تعقيداتها ؟ في رواية بيكيت « مالون يختصر » سلسلة من الاتهامات للعالم .

ذلك ان هذه الشخصية معقدة تعقيداً معضلاً ، ولكنها تعتقد ببراءتها . انها تشبه ذلك

الرجل الذي كان يرسل لعنائه للعالم من كهف في باطن الارض ، في رواية دستوفسكي

« رسائل من تحت الارض » . ولكن اذا كان اي انسان بريئاً ، فمن هو المجرم ؟ اهو

الآخر ، ام هو المجتمع ، ام كلاهما معاً ؟

هذه الاتهامات السلبية ربما تكون رداً على الظلم ، ولكنها تنتهي الى رفض العالم

بانسانيته ومنطوياته . ومن هنا كانت اهميتها ، في كونها تحليلات سيكولوجية للنفس

البشرية . هذه الصورة نفسها نجدها لدى كافكا ، ولكن بشكل آخر يظهر معه وكأن

العالم لا يتفك عن سحق الانسان . ولكن الانسان هذا هو انسان القيم والمعتقدات ، اذ

تبدو براءته حقيقة واقعة ، وان العالم فعلاً ينطوي على الشر ، وان المثاليات تظهر وكأنها

اشياء خارجة عن العالم متهددة بالخطر . ومن هنا يقول كيركغارد : « الايمان قوة ..

وحالما ينتصر الايمان يلحق به الآخرون . لماذا ؟ لأنه ايمان ؟ كلا . ذلك انه لو كان لهذا السبب وحده لالتحق به الناس عندما كان معاناة وألماً . لم يعتنقوه لانه كانت له قوة : لقد اعتنقوه عندما اصبح قوة وعندما اعتنقه الآخرون .

ولكن ما هو مستقبل هذا الانغلاق في اعماق النفس البشرية ؟ اهو الجنون ؟ ام الموت ؟ ام الخلاص ؟

في فيلم « خلال مرآة داكنة » يحاول المخرج السينمائي انغار بيرغمان ان يجيب بطريقته المعقدة على هذه الاسئلة . فهو يعتقد بان مشكلات الانسان الحقيقية تنبثق عن الجنس والعقل ، وان الاثنين يتداخلان حتى يكونا صورة الله . ويختار بيرغمان في العادة انواعاً خاصة من الديكور ، قد تخفى على الكثيرين ، للتعبير عن هذه الرموز . والذين لا يعرفون حيل بيرغمان لا يفهمون منظويات الاشكال الذي يحاول ان يجله . تدور حوادث هذا الفيلم في بيت من طابقين منعزل على شاطئ مهجور ، فيه اربعة اشخاص : والد وابنته وزوجها الطبيب وابنه . وتحس ان هناك علاقات جنسية غامضة تربط الفتاة بالاشخاص جميعهم . ولهذا يفترض بيرغمان ان تكون الابنة منحرفة عقلياً ، ثم ينسحب هذا الشك على مجموعة الاشخاص الذين اختاروا تلك البقعة من الارض مسرحاً لنشاطهم الغريب . في هذه الاثناء اختارت الفتاة القاعة الخاوية تماماً في الطابق العلوي لكي تنفرد بنفسها . انها تتكلم من خلال شق في الحائط مع كائن وهمي . ونفهم في النهاية ، عندما تقول : لقد رأيت الله ، انها كانت تتحدث مع الهما الخاص . ولكن في هذه اللحظة تهبط طائرة هيلوكبتر ( و تراها من خلال الشق ) لكي تقتلع الصورة نهائياً من عقلها . هنا ، وفي اللحظة الاخيرة ، تندخل الآلة كرمز للقوة الحديثة ، للعالم الحديث الذي يشترك مع كثير من الاشياء في تكوين عقل الانسان . ولهذا الرمز اهميته ، عندما نعرف ان ديكور هذه الردهة العلوية التي كانت تنفرد فيها الفتاة كانت صورة داخلية لدماغ الانسان . اي ان هذه الغرفة كانت ترمز الى عقل الانسان ، ولم يكن حديثها بالتالي الامع عقلها . هذه النفس البشرية اذ لم تعد بقادرة على تحمل تعقيدات الحياة المعاصرة ، ولم تعد بقادرة كذلك على تحمل معاناة الانغلاق في داخل الانسان ، التي كان من نتيجتها غياب التناسق الضروري بين العقل والنفس والجسد . لهذا ترى الفتاة وقد اخذت الى مصح عقلي في نهاية الفيلم .

ولعل هذا المفهوم هو مرتكز الكتاب السيكلوجيين المعاصرين . ويشدد اوجين

يونسكو ، في مسرحيته « الملك يموت » على هذا الانغلاق . ان صراع الرغبات البشرية يتعاضم بصورة لم يسبق لها مثيل ، وتحس فجأة ان ضجيج العالم قد تلاشى لكي ينطلق فجأة من داخل الانسان ، حتى لم تعد بقادر على تحمل هذا الضجيج ، الذي مر بالانسان ، كي يكون صراخاً حاداً ينتهي شيئاً فشيئاً - لا ليتلاشى في العالم الخارجي وانما ليعود مرة اخرى الى داخل النفس البشرية ، منتظراً لحظة اخرى لكي ينطلق من جديد ، صراخاً حاداً مزعجاً ، في صورة رغبات مهلوسة لامتلاك العالم . ومن هنا برز رمز الانسان المنقل ، الانسان المتعب . وهنا نجد شبهة كبيرة بين مشكلة هذا الملك الذي يختصر بالرغم عنه ، وملك البير كامو في « كاليغولا » : كلاهما يرغب في امتلاك العالم ، وكلاهما يحاول الحصول على المستحيل . انهما يعبران عن هذا الرمز : « اني ارغب في امتلاك ما لم يرغب في امتلاكه انسان قط . قد يوجد هناك انسان ما راودته هذه الرغبة ، ولكنه لم يجرؤ على الجهر برغبته ، ولهذا اعتبر ان هذه الرغبة لم توجد لدى انسان قط ، واني انسان فريد ، ذلك لأن رغباتي فريدة » .

ولكن هل تعتبر الرغبة في المستحيل من مشكلات الانسان الحديث ؟ ترى ما الذي يرحوه الانسان من العالم ؟ ايكون شيئاً ما ، ولكنه غير محدد ؟

قلت ان هناك ظاهرة لدى الانسان الجديد المعاصر ، هي البحث عن المدهش ؛ ولكن ما هو الشيء المدهش ؟ الواقع ان الشيء المدهش هو كذلك شيء غير محدد ، هو مطلق . ايكون ذلك اذاً تعويضاً عن المعتقدات المطلقة ؟ اذاً هناك انسان يعاني اقتلاعاً من مجتمعه ، من القيم التي يستند اليها المجتمع . هذا الاقتلاع هو من مشكلات الانسان الحديث .

ومن هنا جاءت ازمة كتاب الطليعة في اوربا . الانسان الحديث انسان زئبقي ، اصبح من الصعب جداً لمسها لمساً يعطي معنى الاحتفاظ في مفهوم الزمن . ولذا يتحدث الجيل الجديد في اوربا ، بمرارة ، عن غياب الكاتب الطليعي الذي يعبر عن الانسان الحديث عمقاً وشمولاً . ويبدو انه نتيجة لذلك اصبح من الصعوبة بروز كاتب طليعي على مستوى عمق هذه التحديات في مدى عمق النفس البشرية الحديثة .

اذاً ما هو مستقبل النفس البشرية ، ما هو اعلى حدود احتمالاتها ؟ بيرغمان وضع الجنون كحل ؛ فهل هذا واقعي ؟ كافكا قتل الانسان البريء ؛ ولكن من ابقى ؟ الانسان ذا

الطبيعة الاجرامية؟

ولكن انسان كافكا قتل لأن المجتمع رفض قيمه . انه الانسان المثالي : انه لم يصدق على العالم ، ولكنه لم يفهمه . وحتى في اعلى حدود الاحتمال ، عندما تحول الانسان الى حشرة كصورة من حالات الخلاص ، لم يستطع ان يحول كراهية العالم له الى حب ، وعجز حتى عن تحويل هذه الكراهية الى رثاء .

هل هؤلاء الكتّاب مثاليون يعبرون فقط عن واقعهم الخاص ، كأبرياء؟ كثير من الاسئلة تنشأ عند بحث مشكلات الانسان الحديث . والاسئلة نفسها قد تكون اجوبة في عدد من الحالات الخاصة .

ففرانسيس بيكون مثلا ، الرسام المعاصر ، يجد ان افضل صورة للانسان الحديث هي الكشف عن التشويه الداخلي لنفسه : فليس صحيحاً ان الانسان الحديث معقد وحسب ، انما هو مشوه في داخله كذلك ؛ ولهذا نجد رسومه تنظوي على رعب غير متوقع . ان الصور ليست مجرد تتابع في حلقات ، انها شلال مستمر من الرعب البشري منعكس في الجسد . ولكن احتمال كون الجسد قادراً على التعبير عن الحركات النفسية والعقلية احتمال ضعيف جداً ، بل انه يكاد يكون مستحيلاً . وليست هذه مشكلة الرسام فحسب ، وانما هي مشكلة المخرج السينمائي كذلك . ومن هنا نجد اورسن ولز يستعين بالظلال والرددهات القديمة والقاعات المعتمة والمواقف الغامضة لكي تعطي عمقاً لحركات الجسد كتعبير عن مشا كل نفسية او معاناة عقلية . ويبدو ان سلفادور دالي بات الآن موضع عناية جدية كظاهرة من ظواهر هاوسة النفس البشرية المعاصرة . ان لوحته « نرجس » المعروضة في متحف التيت غاليري في لندن تعطي مفهوماً عن نزعة الرعب هذه ، عندما ندقق في وضع ذلك الوحش الذي يأكل لحمًا بشرياً بينما وقف الى جانبه انسان يفكر في نفسه بعمق حتى ليخيل اليك ان هذه الاشكال ، على انواعها ، التي انتشرت حوله ، لم تكن سوى اعماقه الصارخة . انه وضع آخر للملك الذي يحتضر .

قلت ان الانسان الحديث قد تحلى عن مفهوم الحياة كمأساة . وبدأ يفتش عن المدهش في العالم . ولكن هذا المدهش يظل حافزاً ما دام الانسان يعيش غريباً باحثاً ، ولكن ماذا يحدث لو تحلى الانسان عن غربته هذه ، لو اصبحت العالم غير مثير ؟ الحقيقة ان العالم سيبقى ، ولو الى مدى بعيد ، موطن اثاره ، وينابيع الدهشة ستبقى مصدرراً لمطاء ضخم . وسيكون هذا نحواً ايجابياً ، وانعطافاً ببناء .